العقل

تعريفه ،منزلته ،مجالاته ومداركه

إعداد

الدكتور عبد القادر بن محمد عطا صوفي

أستاذ الفرق والعقيدة والوافدات الفكرية المساعد

ونائب مدير مركز البحوث التربوية بكلية المعلمين في أبها

مجلة كلية دار العلوم العدد الحادي عشر يونيو ٢٠٠٤

العـــــــقل

تعريفه ، منزلته ، مجالاته ومداركه

إعداد : الدكتور عبد القادر بن محمد عطا صوفي
(أستاذ الفرق والعقيدة والوافدات الفكرية المساعد)
(ونائب مدير مركز البحوث التربوية بكلية المعلمين في أبها)

الحمد لله الذي أوجدنا من العدم ، وجعل أمّتنا خير الأمم .

وأشـــهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ندب أصحاب العقول إلى إعمال عقولهم ، وحثّهم على التفكُّر في مخلوقاته التي تُحيط بهم .

والصـــلاة والسلام على نبيِّنا محمَّدٍ أفضل من عقل وفهِم ، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم . وبعـــد :

فـــإنّ ديـنـــنا الإسلاميّ لم يحجر على العقول، أو يُهملها، بل رفع من شأنها، وأعلى من قدرها، وجعلها مناط التكليف، وفرَّق بين الذين يعقلون، والذين لا يعقلون.

والعقلُ له منــــزلـــةٌ في الإسلام لا تُنكر، ومجالاته فيه كثيرةٌ، وجديرة بأن تُذكر.

وقبل الحديــث عن مـــنــــزلته ، والخوض في مجالاته ومداركه ، لا بُدّ من وقفةٍ نُبيّن بها المراد به في اللغة والاصطلاح .

وهذا يستلزم تقسيم البحث إلى ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : تعريف العقل لغة واصطلاحاً :

أولاً : العقـــل في اللغـــــــــــة :

العقل في اللغة يُطلق على المنعِ والحَبْسِ . يُقال : اعتُقِلَ الرجلُ ، إذا حُبِسَ . ومرض فلانٌ ، فاعْتُقِلَ لِسَانُه ، إذا امتنع عن الكلام ، فلم يَقْدِر عليه[1] .

---

[1] الزمخشريّ ، ١٤٠٩هـ ، مادة "عقل" .

ومنه قول ذي الرُّمَّة[١] :

ومُعْتَقَلُ اللســـان بغير خبْـــل يميـــدُ كأنَّه رجُلٌ أميمٌ[٢]

ويُقــال : أعْطِني عَقُولاً أشْرَبُهُ ، إذا طلب دواءً يُمْسِكُ بطْنَه[٣] .

ويُقــال كذلـــك : عقلْتُ البعير أعْقِلُهُ عقْلاً ، إذا منعته من الحركة ، وذلك بأن تثني وظيفَه مع ذراعه ، فتشدّهما جميعاً في وسط الذراع[٤] .

ومن هذا الباب قوله ﷺ لصاحب الناقة : "أعْقِلْها وتوكَّلْ"[٥] .

وذلك الحبل الذي تُعقل به الناقة يُقال له العقَالُ ، والجمع عُقُلٌ"[٦] .

ومنه قوله ﷺ عن القرآن الكريم :"لَهُوَ أشدُّ تفصِّيًا من الإبلِ في عُقُلِها"[٧] .

وإنَّما يُعقل البعير لحبسه ، ومنعه من الهرب ، والشرودِ .

واعْتَقَلْتُ الشاةَ ، إذا وضعتَ رجلها بين فخذيك، أو ساقيك، لتحلُبَها[٨] ؛ فأنت بفعلك هذا تمنعها من الحركة .

وعَقَــلَ الوَعِــلُ ، إذا امتــنع في الجبل العالي ، يَعْقِلُ عُقُولاً . والمكان الممتنعُ فيه يُسمَّى "المَعْقِل"[٩] . وبه سُمِّيَ الوَعِلُ عاقِلاً .

---

(١) هو غيْلانُ بن عُقبة ، أبو الحارث العدويّ . من فحول الطبقة الثانية . وأكثر شعره تشبيبٌ وبُكاءٌ على الأطلال . مات سنة ١١٧هـ . (الزركلي ، ١٩٨٤م ، ١٢٤/٥) .

(٢) الحربي ، ١٤٠٥هـ ، ١٢٣٢/٣ ، قوله "جعل دية المقتولة على عاقلة القاتلة" .

(٣) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ١٤٠٧هـ ، مادة "العَقْلُ" .

(٤) الجوهري ، ١٤٠٢هـ ، مادة "عقل" .

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه ، ك القيامة ، باب رقم ٦٠ ، من حديث أنس ﷺ ، وقال : "هذا حديثٌ غريبٌ من حديث أنس ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقد صححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي" ، ١٤٠٨هـ ، ٣٠٩/٢ ، ح ٢٠٤٤ .

(٦) الجوهري ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٧) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ . (البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده . ومسلم، صلاة المسافرين، باب فضائل القرآن).

(٨) الزمخشري ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٩) الحربي ، مصدر سابق .

يقول النابغة الذُبياني(١) :

وقد خِفْتُ حتّى ما تزيدُ مَخافتي على وعل في ذي المطارة عاقل(٢)

وتُسَمَّى الديةُ عقْلاً ومعْقُلَةً ؛ فيُقال : القومُ على معاقلهمْ الأولى ؛ أي على ما كانوا يتعاقلون في الجاهليّة ، كذا يتعاقلون في الإسلام(٣) .

وقد جاء في الحديث أنّ رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين من قريش ، والأنصار، أنّهم على رِباعتِهم(٤) ؛ يتعاقلون معاقِلَهُمُ الأولى"(٥) .

وعقَلْتُ عن فُلانٍ ؛ أي غرِمْتُ عنه جنايته إذا لزمتْهُ ديةٌ ، فأديتها عنه(٦) . وعاقلةُ الرجل: عَصَبَتُهُ؛ وهم القرابة من قِبَل الأب الذين يُعطون ديَةَ من قتله خطأً(٧) .

ويشهد لهذا المعنى،ما جاء في حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنهما: " أنّ امرأتَيْنِ قَتَلَتْ إحْدَاهُمَا الأُخْرَى ، فجعَل رسولُ الله ﷺ ديَةَ المقْتُولَةِ على عاقِلَةِ القَاتِلَة"(٨) .

وإنّما أطلقوا على الدية ، وأدائها عقْلاً ؛ لأنّ الإبل كانت تُعقل –تُحبَس– بفناء وليّ المقتول(٩) .

والعقِيلَةُ هي كريمةُ الحيّ ، وسُمِّيت بذلك لحبْسِها نَفْسَها في بيتها(١٠) .

---

(١) هو زياد بن معاوية بن ضباب ، أبو أمامة الذبياني . شاعرٌ جاهليّ من الطبقة الأولى من أهل الحجاز. له شعرٌ كثيرٌ ، وعُمِّر طويلاً . (الزركلي ، مرجع سابق ، ٣/٤٥-٥٥) .

(٢) النابغة : ديوانه ، ١٤٠٥هـ ، ص ١٢٩ .

(٣) الجوهريّ ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٤) أي أمرهم الذي كانوا عليه . (الفيروزآبادي ، مصدر سابق ، ص ٩٢٨-٩٢٩) .

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٧١ من حديث ابن عباس ، و٢/٢٠٤ من ابن عمرو ﷺ .

(٦) الزمخشري ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(٧) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، مصدر سابق ، مادة "العقل" .

(٨) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الديات ، باب دية الجنين . وصححه الألباني في "صحيح سنن أبي داود" ، ١٤٠٩هـ ، ٣/٨٦٥ ، ح ٣٨٢٦ .

(٩) الجوهري ، مصدر سابق ، مادة "عقل" .

(١٠) الحربي ، مصدر سابق ، قوله "اعقلها وتوكّل" .

يقول امرؤ القيس(1):

عقيلةُ أتراب لها لا دميمة ولا ذاتُ خلق إن تأمّلت جأنب(2)

أي ليست دميمة، ولا قصيرة.

وخلاصة القول: أنّ العقل في اللغـة يُطلق على المنع والحبس.

ووجـه تسـمية العقل بهذا الاسـم: كونه يمنع صاحبه عن التورُّط في المهالك، ويحبسه عن ذميم القول والفعل(3).

والفهـمُ والبـيانُ يُسـمَّى عقلاً أيضاً؛ "لأنّه عن العقل كان، فيقول الرجل للرجل: أعقَلْتَ ما رأيتَ، أو سمعْتَ؟ فيقول: نعم، يعني: أنِّي قد فهِمْتُ، وتبيَّنْتُ. والعربُ إنَّما سمَّتِ الفهمَ عقلاً؛ لأنَّ ما فَهِمتَه فقد قيَّدْتَه بعقلك، وضَبَطْتَهُ "(4).

وهـذا التعريفَ اللغويّ للعقل يُوضِّح مراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ من قولـه "عقَلْـنَاهَا"، في قوله: "إنَّ الله قد بَعَثَ محمَّداً ﷺ بالحقِّ، وأنزلَ عليه الكتاب. فكان ممَّا أنزلَ عليه آيةَ الرَّجْمِ؛ قرأناها، ووَعَيْنَاها، وعَقَلْنَاهَا"(5).

و"عقَلْنَاهَا": أي فهمناها، وضبطناها، وأمسكناها.

فما سُـمِّي العقل عقلاً إلاَّ لأنَّه يُمسك ما علِمَه، ويضبطه، ويفهمه؛

فيُقال: عقَلَ الشيءَ، إذا فَهِمَهُ، فهو عقُولٌ.

وعقَـلَ الشـيءَ، إذا علِمَهُ، أو علِمَ صفاتِه؛ من حسنٍ وقُبح، وكمالٍ ونقصان، فأمسكها، وأمكن أن يُميِّز بين القبيح والحسن، والخير والشرِّ(6).

---

(1) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي. أشهر شعراء العرب، وأحد شعراء المعلّقات. ولد بنجدٍ، ومات بأنقرة –في تركيا-.(الزركلي، مرجع سابق، 2/11-12).

(2) امرؤ القيس: ديوانه، 1404هـ، ص 30.

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 1366هـ، مادة "ع ق ل".

(4) المحاسبيّ، 1406هـ، ص 24.

(5) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيّب في الزنى.

(6) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، مادة "العقل".

فالعاقل خلاف الجاهل ؛ يحبس نفسه ، ويمنعها عمّا يُوبقها، ويردها عن هواها، ويمسك من يعلمه ، ويُميّز بين ما ينفعه وما يضرّه ، في عاجله وآجله .

ثانياً : تعريف العقل اصطلاحاً :

تنوّعت التعريفات المقولة في العقل ، واختلفت ، وأغلبها عليه انتقادات[1] .

والتعريف الذي اخترته تفصيليٌّ ، يشتمل على أربعة معانٍ قيلت في العقل ، لا ينفك واحدٌ منها عن الآخر ، متى فُقد واحدٌ منها ، قيل لصاحبه: ليس له عقلٌ :

المعنى الأوّل : الغريزة التي في الإنسان ، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان ؛ فبه يعلم ، وبها يعقل ، وبها يُميِّز ، وبها يقصد المنافع دون المضارّ .

يقول أبو حامد الغزالي[2] (ت ٥٠٥هـ) عن هذا المعنى ، إنَّه : " الوصفُ الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم ، وهو الذي استعدّ به لقبول العلوم النظريّة ، وتدبير الصناعات الخفيّة الفكريّة"[3] .

ويقول الماوردي[4] (ت ٤٥٠هـ): "فالغريزيّ هو العقل الحقيقيّ، وله حدٌّ يتعلّق به التكليف ، لا يُجاوزه إلى زيادة ، ولا يقصُر عنه إلى نقصان ، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان"[5] .

---

(١) ابن حسن ، ١٤١٢هـ ، ١/١٥٧-١٥٨ .

(٢) هو محمّد بن محمّد الطوسيّ ، أبو حامد الغزالي . اشتغل بعلم الكلام ردحاً من الزمن ، ثمّ كانت خاتمة أمره الإقبال على الحديث ومجالسة أهله. مات سنة خمسٍ وخمسمائة. (ابن خلكان، د . ت، ٤/٢١٦-٢١٩ . والذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ١٤٠٢هـ ، ١٩/٣٢٢-٣٤٦) .

(٣) الغزالي ، ١٤٠٦هـ ، ص ٥٨ .

(٤) علي بن محمد ، أبو الحسن الماوردي . من العلماء الباحثين ، والمؤلّفين المكثرين . أقضى قضاة عصره . مات سنة ٤٥٠هـ . (الزركلي ، مرجع سابق ، ٤/٣٢٧) .

(٥) الماوردي ، ١٤٠٧هـ ، ص ٦ .

ويقول الحارث بن أسد المحاسبي[١] (ت ٢٤٣هـ) : "فأمّا هو في المعنى والحقيقة فهو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه، لم يطلع عليها العباد لا غيره، ولا اطّلعوا عليها من أنفسهم برؤيةٍ ، ولا بحسّ ، ولا ذوقٍ ، ولا بعضهم من بعض، وإنّما عرّفهمُ الله ﷻ إيّاه بالعقل منهم ؛ فبذلك العقل عرفوه ، وشهدوا عليه طعمٍ . بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم ، بمعرفة ما ينفعهم ، ومعرفة ما يضرُّهم"[٢] .

فبإمكان العباد أن يطّلعوا بعقولهم على هذه الغريزة ؛ أهي موجودة عند فلان ، أو ليست كذلك ، بالنّظر إلى أفعال جوارحه ؛ فـ"إذا رأوا من أفعاله ما يدلُّهم على أنّه قد عَرَف ما ينفعه في دنياه وما يضرّه، وإذا رأوه طالباً عاملاً فيما ينفعه من دنياه، مجانباً لما يضرّه من دنياه ، سمّوا من كان كذلك : عاقلاً ، وشهدوا له أنّ له عقلاً ، وأنّه لا مجنون ، ولا تيّاه ، ولا أحمق "[٣] .

ويُمكن الاستئناس في بيان بعض هذه الصفات -التي تُمكن ملاحظتها في العاقل- بقول ابن القِرِّيّة[٤] (ت ٨٤هـ): "الرجالُ ثلاثةٌ : عاقلٌ ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل إن كُلِّمَ أجاب ، وإن نَطَقَ أصاب ، وإن سمِعَ وعى . والأحمقُ إن تكلّم عَجِلَ ، وإن تحدّث وَهِلَ[٥] ، وإن حُمِلَ على القبيحِ فعَلَ .."[٦] .

---

(١) أبو عبد الله . من شيوخ الصوفيّة . كان ينتسب إلى قول ابن كُلاّب في نفي الصفات الاختياريّة . مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ . (الخطيب البغدادي ، د . ت ، ٢/٢١٤-٢١٦ . والسلميّ ، ١٣٨٠هـ ، ص ٥٦-٦٠) .

(٢) المحاسبيّ ، مصدر سابق ، ص ١٧ .

(٣) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ١٨ .

(٤) هو أيوب بن زيد الهلالي، المعروف بابن القِرِّيّة، والقِرِّيّة أمُّه. معدودٌ من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة.قتله الحجّاج بن يوسف سنة ٨٤هـ.(الزركلي،مرجع سابق،٢/ ٣٧).

(٥) ضعُف ، وجَبُنَ ، وفَزِعَ . (أنيس ورفاقه ، ١٩٧٢م ، ص ١٠٦٠) .

(٦) [illegible] ، ١٤٠٩هـ ، ص ٤٧ .

وكـــلام ابن تيمية عن الفرق بين المجنون والعاقل تنبه هذا الكلام، ومنه قوله: المجنون الذي لا يميّز بين الدراهم والفلوس، ولا بين أيام الأسبوع، ولا يفقه ما يقال من الكلام ليس بعاقل. أمّا من فهم الكلام، وميز بين ما ينفعه وما يضره، فهو عاقل[1]

يقول أحد الشعراء معدّداً بعض الصفات التي يُستدلُ بها على عقل العاقل:

يُعرفُ عقلُ المرءِ في أربعِ ... مشيتُهُ أولُهـــا، والحركْ
ودورُ عينيهِ، وألفـــاظُـــهُ ... بعدُ عليهنَ يـــدور الفلكْ
وربّمـــا أخلفَـــــــن إلاّ التي ... آخرُها منهن سمّين لكْ[2]

فهذه بعضُ صفات منْ وهبهُ اللهُ المعنى الأوّل من معاني العقل،-وهو الغريزة-: فهمُ الخطاب، وردّ الجواب، وصلاحُ المِشيةُ، واتزان الحركات، واستقرارُ العينين، ونحو ذلك.

وهذه الغـــريزة -التي هي إحدى معاني العقل- شرطٌ في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف؛ فإذا عُدِمتْ في الإنسان، سقطت عنه التكاليف الشرعيَّة.

وفـــي ذلك يقول الحارث المحاسبيّ (ت ٢٤٣هــ): "فالعقل غريزةٌ، جعلها الله في الممتحنيـــن مـــن عـــباده؛ أقـــام به على البالغين للحُلم الحجَّة، وأنَّه خاطبهم من جهة عقولهم، ووعد، وتوعَّد، وأمر، ونهى، وحضَّ، وندَب"[3].

وهـــذا العقـــل المشروط في التكليف لا بُدَّ أن يُكوِّنَ عُلوماً يُميِّزُ بها الإنسانُ بين ما ينفعه وما يضرُّه.

وعـــن هذا المعنى نفسه، يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هــ): "العقلُ شرطٌ في معرفة العلـــوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، ولكنَّه ليس مستقلاً بذلك، لكنّه غريزةٌ في النَّفس، وقوَّة فيها، بمنـــزلة قوَّة البصر التي في العين"[4].

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٤٠٤هـــ، ٢٨٧/٩.
(٢) ابن عبد ربه، ١٤٠٤هـــ، ١٠٦/٢.
(٣) المحاسبي، مصدر سابق، ص ١٩.
(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، ٣٣٨/٣.

ويُلاحظ تشبيهه العقل بالبصر .

وقد سبقه إلى هذا التشبيه البليغ قومٌ ، قالوا عن العقل : "هو نورٌ وضعه الله طبعاً وغريزة، يُبصر به، ويُعبّر به. نورٌ في القلب،كالنور في العين، وهو البصر.."(١).

لكنّ هذا البصر إن اتصل به نور الشمس ، أو ضوء النّار ، صار أشدَّ قوّةً وإبصاراً ، وإن انفرد بنفسه ، ضَعُفَ .

كذلك صاحب العقل إن وصله بنور الإيمان والقرآن ، اهتدى وسعُد . وإذا لم يتصل بهما عجز عن إدراك الأمور التي لا يُمكن أن يستقلّ بإدراكها .

وهذا معنى قول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن العقل، إنّه: "بمنزلة قوّة البصر التي في العين ؛ فإن اتّصل به نور الإيمان والقرآن ، كان كنور العين إذا اتّصل به نور الشمس والنّار . وإن انفردَ بنفسه، لم يُبصر الأمورَ التي يعجز وحدَه عن دَرْكِهَا"(٢).

وهذا التشبيه الرائع من ابن تيمية -وممَّن سبقه- ينطبق على أولئك الذين اعتصموا بالكتاب والسنّة ، وعلى مخالفيهم الذين اتّكلوا على عقولهم ، معرضين عن الاهتداء بنور الوحي، فعموا عن الحقّ، وضلّوا عنه، وآل أمرهم إلى التخبُّط والحيرة .

ويصدق عليهم قول الله ﷻ عن بني آدم عليه السلام : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى*وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾[طه : ١٢٣-١٢٦]

المعنى الثاني: العلومُ التي تُلازم الإنسان العاقل ؛ فتقع في نفسه ابتداءً ، ولا تنفكّ عن ذاته ؛ كالعلم بالممكنات ، والواجبات ، و**الممتنعات** .

---

(١) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ١٩ .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ٣/٣٣٩ .

وهذا معنى من معاني العقل ؛ إذ ثمة علوم تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز ، بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ؛ كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأنّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد[1] ، وأن الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدم ، وأنّ الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم ، وأن من المحال اجتماع الضدين"[2] . **وهذه العلوم تشمل جميع العقلاء**[3] .

المعنى الثالث: العلوم المستفادة من التجارب ، والمكتسبة بواسطة العقل ، والتي يحفظها الإنسان ، ويمسكه"[4] .

وهــذا العقــل يُعــدُّ نتيجةً للعقل الغريزيّ، وهو "نهاية المعرفة، وصحة السياسة، وإصابة الفكرة . وليس لهذا حدٌّ ؛ لأنّه ينمو إن استُعمل، وينقُص إن أُهمل"[5].

وعــنه يقول الغزالي (ت ٥٠٥هــ) : "الثالث : علومٌ تُستفاد من التجارب بمجاري الأحــوال ؛ فــإنّ من حنَّكَتْهُ التجاربُ ، وهذَّبَتْهُ المذاهبُ ، يُقال إنّه عاقلٌ في العــادة ، ومــن لا يتصــف بهــذه الصفة ، يُقال إنّه غبيّ ، غمرٌ ، جاهلٌ . فهــذا نوعٌ آخر من العلوم يُسمَّى عقلاً "[6] .

ونماء هذا النوع يكون بأحد أمرين ، هما :

١- كثرة الاستعمال ؛ كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة ، وصحّة الرؤية ، بكثرة التجارب ، وممارسة الأمور .

٢- وفرط الذكاء ، وحُسْن الفطنة[7] .

---

(١) الغزالي ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .

(٢) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ٧ .

(٣) ابن حسن ، مرجع سابق ، ١٥٩/١ .

(٤) الفيروزآبادي ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، ١٤٠٣هــ ، ٨٥/٤ .

(٥) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ٧ .

(٦) الغزالي ، مصدر سابق ، ص ٦٠ .

(٧) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ٧-٨ .

ولقد كانت العرب تقول : "العقلُ : التجاربُ"[١] ، وقد سُئل بعضهم عن العقل ، فقال : "لُبٌ أعنتهُ بتجريب"[٢] .

وهذه التجارب ليس لها غاية ، والعقل منها في ازدياد ، كما قال أحدهم :

ألـم تر أنّ العقل زينٌ لأهلِه وأنّ كمال العقل طولُ التجارب[٣]

فكلّما كثرت تجارب الإنسان ، زاد عقلُه ، بسبب ازدياد علومه .

ومكان ضبط هذه العلوم هو القلبُ ؛ إذ هو وعاء العلم .

وإلى هذا العقل أشار معاوية ﷺ بقوله : "العقلُ عقلان ، عقلُ تجارب ، وعقلُ نَحيزَةٍ . فإذا اجتمعا في رجلٍ ، فذاك الذي لا يُقام له . وإذا تفرّدا ، كانت النحيزةُ أولاهما"[٤] .

وهو يُشبه قول من قال : "العقل ضربان : عقلُ الطبيعة ، وعقل التجربة . وكلاهما يُحتاج إليه ، ويُؤدِّي إلى المنفعة"[٥] .

فعقل النحيزة[٦] -المذكور في قول معاوية ﷺ-، هو الغريزة التي في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان. وعقل التجارب هو العلوم المكتسبة بواسطتها .

وممّا تنبغي ملاحظته : "أنّ العقل المكتسب لا ينفكّ عن العقل الغريزيّ ؛ لأنه نتيجة منه . وقد ينفكّ العقل الغريزيّ عن العقل المكتَسَب ، فيكون صاحبُه مسلوبَ الفضائل ، موفورَ الرذائل ؛ كالأنْوكِ[٧] الذي لا تجد له فضيلة ، والأحمقِ الذي قلّما يخلو من رذيلة"[٨] .

---

(١) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٥٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .
(٣) ابن عبد ربه ، مصدر سابق ، ٢/١٠٩ .
(٤) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٥٠ .
(٥) ابن عبد ربه ، مصدر سابق ٢/١٠٨ .
(٦) ذكر ابن فارس في كتابه "**اللفيف في معرفة كلّ معنى لطيف**" ص ٦٩ ، أنّ "**نحيزة**" من مرادفات كلمة "طبيعة" .
(٧) الأحمق . (الزمخشري ، مصدر سابق ، ص ٦٥٨) .
(٨) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ١٤-١٥ .

المعنى الرابع : الأعمال التي يستوجبها العلم؛ من إيمان بالله، وتصديق بكتبه، ورسله، والتزام بأمره ونهيه؛ كحبس النفس على الطاعات، وإمساكها عن المعاصي.

وهذا معنى رابع من معاني العقل، وعنه يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "لفظ العقل يطلق على العمل بالعلم"(١).

فالعمل من لوازم العقل ؛ لأنّ صاحب العقل إذا لم يعمل بعلمه ، قيل : إنه لا عقل له(٢) ؛ فإنّ العقل مستلزمٌ لعلومٍ ضروريّةٍ يقينيّة، وأعظمها في الفطرة : الإقرار بالخالق(٣).

فحالُ مَنْ لم يعمل بعلمه، أنّه صاحبُ عقلٍ يُمسكُ علوماً ضروريّةً فطريّةً ، يعرف بها ربَّه ﷻ ، ولكنَّ هواه صدَّه عن اتباع موجب العقل ، فصار لا عقل له بهذا الاعتبار .

وقد اتّصف هذا بمعاني العقل الثلاثة المتقدِّمة ؛ فمعه غريزة العقل التي فرّق الله بها بين العقلاء والمجانين ، ومعه علومٌ ضروريَّة فطريَّة ، ولديه علومٌ مكتسَبةٌ ؛ فقد جاءته الرسل بالبيِّنات ، ولكنَّه لم يحظ بشرف الاتّصاف بهذا المعنى الرابع ؛ وهو العمل بعلمه ، لذلك يُقال عنه : إنَّه غيرُ عاقلٍ عن الله ﷻ .

وقد وَصفَ الله ﷻ في كتابه رِجالاً بالعقل، وأخبر في الوقت نفسه أنَّهم لم يستفيدوا منها؛ فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف : ٢٦].

فهؤلاء قد عَقَلُوا البيان الذي لزمتهم من أجله الحجَّة ، لكنَّهم لم يعملوا بما عقلوا ؛ فحالهم أنَّ لهم عقولاً يعرفون بها الحقّ ، ولكنَّ هواهم صدَّهم عن اتباع موجب العقل ، فلا عقل لهم بهذا الاعتبار(٤) .

---

(١) ابن تيمية ، بغية المرتاد ، ١٤٠٨هـ ، ص ٢٥٠-٢٥١ .
(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ١٦/٣٣٦ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ١٦/٣٣٧ .

وقد وصفهم ﷻ في موضع آخر بالعقل الذي يميزون به ، ويعقلون به أمور الدنيا كلها في الجليل والدقيق ، لكنهم للآخرة لا يعقلون ؛ فقال ﷻ: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجـنّ والـإنس لهمْ قلوبٌ لا يفقهون بها ولهمْ أعينٌ لا يُبصرون بها ولهمْ آذانٌ لا يسْمعون بها أولـئك كالأنعام بلْ همْ أضلُّ أولئك همُ الغافلون﴾ [الأعراف : ١٧٩] . فهم "بالدنيا أهل بصر وسمع وعقل. فلم يعْن أنهم صمٌّ خرسٌ مجانين، وإنّما عذّبهم لأنهم يعقلون. ولو تدبّروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه ؛ من آيات الكتاب، وآثار الصنعة ، واتصال التدبير ، الذي يدلّ على أنّه واحدٌ لا شريك له"(١) ؛ أي لدلّهم ذلك على أنه المعبود بحقٍ وحده .

فالعاقل -كما قال سفيان بن عيينة[٢] (ت ١٩٨هـ)- : ليس "الذي يعرف الخيرَ من الشرِّ، ولكنّ العاقل الذي يعرفُ الخيرَ فيَتّبِعُهُ، ويعرفُ الشرّ فيجْتَنبُهُ"[٣].

لذلك لمّا وُصِفَ رجلٌ -ممتنعٌ عن الدخول في الإسلام- بالعقل أمام أحد العلماء . قال : "مَه ، إنَّما العاقل مَنْ وَحَّدَ الله ، وعَمِلَ بطاعتِهِ"[٤] .

والله تعالى قد حكى عنهم قولَهم -وهم في النّار- : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[الملك : ١٠] .

"وقد كانت لهم عقولٌ وأسماع ، لزمتهم بها الحجَّة لله ﷻ ، وإنَّما عنى ﷻ أنَّها لم تعقل عن الله فَهْماً لما قال ؛ من عظيم قدرِه ، وقدر عذابه ، فندمت ، وتأذّت بالويل والندم ، لا لأنّها لم تكن تسمع ولا تعقل ، ولا كانوا مجانين ، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه، وتوعّد ووعد"[٥] .

---

(١) المحاسبي ، مصدر سابق ، ص ٣١ .

(٢) ابن أبي عمران ؛ ميمون الهلالي . إمام ، حجّة ، ثقة ، حافظ، فقيه. مات سنة ثمانٍ وتسعين ومائة ، وله إحدى وتسعون . (ابن حجر ، ١٤٠٦هـ ، ص ٢٤٥) .

(٣) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .

(٤) الأصفهاني ، ١٤٠٨هـ ، ص ٩٦ .

(٥) المحاسبيّ ، مصدر سابق ، ص ٣١ .

ولــيس عدم العقل في عدم الإيمان فحسب، بل عدم العقل في ارتكاب المعاصي، وتضييع الفرائض ؛ فمن ضيَّع الفرائض ، وارتكب المحرَّمات ، لم يعقل عظيم قدر الله في جلاله وهيبته ، وعظيم قدر ثوابه وعقابه في القيام بفرائضه ، وارتكاب معاصيه ؛ فالعاقل من يَغلِبُ إيمانُه هواه ، وحلمُه جهلَه . لذلك قــال عامر بن عبــد قيس[1] (ت ٥٥هـ) : " إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عمَّــا لا ينبغي ، فأنت عاقل"[2] .

وسُئل أعرابيّ : "أي منافع العقل أعظم ؟ قال : اجتناب الذنوب"[3] .

فعمل ثمــرةُ العقــل وفائــدته، ولا عقــل لمن لم يعمل بموجب ما دلَّه إليه عقلُه .

إذا تبيَّنْــتَ هــذا، فــاعلم أنَّ العقل يُطلق على كلّ هذه المعاني الأربعة مجتمعة ؛ الغريزة ، والعلوم الضروريَّة ، والعلوم المكتسبة ، والعمل بالعلم .

ويشــهد لهــذا قول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن العقل : "هو علمٌ، أو عملٌ بالعلمِ، وغريزةٌ تقتضي ذلك"[4] .

فــالعقل لا يُسمَّى به مجرَّد العلم الذي لم يَعمل به صاحبُه ، ولا العمل بلا علمٍ ؛ بل إنما يُسمَّى به العلمُ الذي يُعملُ به ، والعمل بالعلم ، ولهذا قال أهل النَّار :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْـأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦][5] .

المسألة الثانية : منزلـة العقل في الإسلام :

لقــد امتــنَّ الله ﷻ علــى الإنســان بــأن منحه نعمة العقل الذي يُميِّزه عن سائر الحيوانات ؛ فقــال : ﴿قُــلْ هُــوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا

---

(١) هو عامر بن عبد الله ، المعروف بابن عبد قيس العنبريّ . تابعيّ من العُبَّاد . مات ببيت المقدس في خلافة معاوية ﷺ . (الزركلي ، مرجع سابق ، ٢٥٢/٣-٢٥٣) .

(٢) الماوردي ، مصدر سابق ، ص ٩ .

(٣) ابن عبد ربه ، مصدر سابق ، ١١١/٢ .

(٤) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ، ١٤٠٢هـ ، ٣٠٢/١٠ .

(٥) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ٢٨٦/٩-٢٨٧ .

تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] ؛ فبالسمع تسمعون ، وبالأبصار تُبْصِرون، وبالأفئدة تعقلون، ولكن قليلاً ما تشكرون[١] .

فالأفئدة هي محلّ العقول ، كما قال ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ؛ فجعل العقل في القلب ، ثمّ أخبر أنّه يُتغطّى على هذا العقل الذي في الصدر .

يقول الإمام الشوكاني[٢] (ت ١٢٥٠هـ) : "وأسْنِدَ التعقُّلُ إلى القلوبِ لأنّها محلُّ العقلِ ، كما أنَّ الآذان محلّ السمع"[٣] .

ويُستأنس لهذا بقول الفاروق عمر ﷺ عن ابن عبّاس -رضي الله عنهما- : "ابن عبّاس فتى الكهول ، له لسانٌ سؤول ، وقلبٌ عقول"[٤] .

"وإضافة العربِ الشيءَ إلى الشيءِ ، إمّا لكونه هو هو ، أو مكانَه . وليس القلبُ عقلاً بإجماعٍ . لم يبقَ إلا أنّه محلُّ العقلِ ، بإضافة الشيءِ إلى محلِّه . ومَنْ خَلَقَ العقلَ أعلمُ بمحلِّه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤]"[٥] .

فالعقل محلُّه القلب ، وهو نعمةٌ ، وهِبَةٌ من اللهِ ، أعطاه عبادَه بلا عِوَضٍ .

وهذه النعمة هي التي ترفع صاحبها إلى مستوى التكاليف الشرعيّة الإلهيّة ، وتؤهّله لإدراكها وفهمها ؛ فالعقل مناط التكليف .

---

(١) ابن جرير الطبري ، ١٤١٢هـ ، ١٧٢/١٢ .

(٢) هو محمد بن علي بن محمد **الشوكاني . فقيه ، مجتهد ، عالمٌ من كبار علماء اليمن . مات** سنة ١٢٥٠هـ . **(الزركلي ، مرجع سابق ، ٢٩٨/٦)** .

(٣) الشوكاني ، ١٣٨٣هـ ، ٤٥٩/٣ .

(٤) ابن عبد البر ، ١٣٩٨هـ ، ٣٥٢/٢ .

(٥) ابن عقيل الحنبليّ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٧/١ .

يقول أبو الوفاء ؛ ابن عقيل[1] (ت ٥١٣هـ) موضحاً معنى التكليف : "وهو مطالبة بالفعل أو الاجتناب له ، وذلك لازمٌ في الفرائض العامّة ؛ نحو التوحيد، والنبوّة، والصلاة، وما جرى مجرى ذلك، لكل عاقل ، بالغ ... "[2] . فالتكليف للعاقل .

ويقول الآمديّ[3] (ت ٦٣١هـ) : "اتفق العقلاء على أنّ شرط المكلّف أن يكون عاقلاً ، فاهماً للتكليف ؛ لأنّ التكليف خطابٌ ، وخطابُ من لا عقل له ولا فهم مُحالٌ ؛ كالجماد ، والبهيمة"[4] .

ويقول الطُّوفيّ[5] (ت ٧١٦هـ) : "من شروط المكلّف : العقلُ ، وفهمُ الخطاب؛ أي : يكون عاقلاً ، يفهمُ الخطابَ ، ولا بُدَّ منهما جميعاً"[6] .

فالمكلّف لا بُدَّ أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب. ومن هنا لم يُكلّف المجنون؛ "لأنّ مقتضى التكليف: الطاعة والامتثال. ولا تمكن إلا بقصد الامتثال. وشرط القصد: العلمُ بالمقصود ، والفهمُ للتكليف ؛ إذ مَنْ لا يفهم ، كيف يُقال له: افْهَمْ ، ومن لا يسمع، لا يُقال له: تكلّم. وإن سَمِعَ ولم يفهم كالبهيمة،فهو كمن لا يسمع..."[7].

فالعقلُ هو الذي يرفع الإنسان إلى مستوى التكاليف الإلهيّة .

وليس ثمّة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنسانيّ، وتكريمه ، والاعتزاز به ، والاعتماد عليه في فهم النصوص ، كالعقيدة الإسلاميّة .

---

(١) هو عليّ بن عقيل بن محمَّد البغدادي الحنبليّ. من متكلّمي الحنابلة. مات سنة ٥١٣هـ. (الذهبي، السير، مصدر سابق ، ٤٤٣/١٩-٤٥١. الزركلي، مرجع سابق، ٣١٣/٤) .

(٢) ابن عقيل ، مصدر سابق ، ٦٨/١ .

(٣) علي بن أبي محمد بن سالم ، أبو الحسن الآمديّ . أصوليّ ، من رؤوس الأشعريّة . توفي سنة ٦٣١هـ . (الذهبي ، السير ، مصدر سابق ، ٣٦٤/٢٢. والزركلي ، مرجع سابق ، ٣٣٢/٤) .

(٤) الآمديّ ، ١٣٨٨هـ ، ١٥٠/١ .

(٥) هو سليمان بن عبد القويّ بن عبد الكريم الطوفيّ ، أبو الربيع الصرصريّ . من فقهاء الحنابلة . مات سنة ٧١٦هـ . (الزركلي ، مرجع سابق ، ١٢٧/٣-١٢٨) .

(٦) الطوفيّ ، ١٤١٩هـ ، ١٨٠/١ .

(٧) ابن قدامة المقدسي ، روضة النّاظر ، ١٤٠٤هـ ، ١٣٧/١ .

بل إنّ **العقيدة الإسلاميّة تدعو العقل إلى تشغيل طاقاتـــه** ، وتستثيره ليؤدّي دوره الـــذي خلقه الله من أجله ، وتنبّهه ليتدبّر ، ويتفكّر ، وينظر ، ويتأمّل ؛ مدلّلة بذلك على أنّ الدعوة إلى الإيمان قامت على الإقناع العقليّ .

ويـــبدو هذا واضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله الكريم ، تكرّرت عشرات المرات فـــي الســياق القرآنـــي ، مدح الله ﷻ من خلالها مسمّى العقل ، ورفع من شأنه[1] ، من خــلال توجيهه إلى النظر ، والتفكّر ، والتدبُّر ، والتأمُّل ؛ مثل قوله ﷻ : ﴿ كذلك يحيي اللّــهُ الموتى ويُريكمْ آياتِه لعلّكمْ تعقلُون ﴾[البقرة : ٧٣]، وقوله ﷻ: ﴿إنّا أنزلْناهُ قرآناً عربيّاً لعلّكمْ تعقلُون﴾ [يوسف : ٢] ، وقوله ﷻ : ﴿ كذَلكَ يُبيّنُ اللّهُ لكُمُ الْآياتِ لعلّكمْ تعقلُون﴾ [النـــور : ٦١] ، وقوله ﷻ : ﴿ كذَلكَ نُفصّلُ الْآياتِ لقوْمٍ يتفكّرُون ﴾ [يونس : ٢٤] ، وقولـــه ﷻ : ﴿ وَهُـــوَ الّذي أنْشأكُمْ منْ نفْسٍ واحدةٍ فمُسْتقرٌّ ومُسْتوْدعٌ قدْ فصّلْنا الْآياتِ لقوْمٍ يفْقهُـــونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨] ، وقـــولـــه ﷻ : ﴿ كتَابٌ أنزلْناهُ إليْكَ مُبارَكٌ ليدّبّرُوا آياتهِ وليَـــتذكّرَ أُولُو الْألْبابِ ﴾ [ص : ٢٩] ، وقوله ﷻ : ﴿ أفلا يتدبّرُونَ الْقُرْآنَ ولَوْ كانَ منْ عـِــنْدِ غيْرِ اللّهِ لوَجدُوا فيهِ اختْلافاً كثيراً﴾ [النساء : ٨٢]. وغير ذلك من الآيات التي لا يُمكن حصرها في مكانٍ واحدٍ .

وقـــد **اعتنى الإسلامُ بالعقلِ** ؛ فأمر ﷻ بالمحافظة عليه، ونهى عن كلّ ما يضرُّ به، أو يُعطّلُ عملَهُ .

فحرّم ﷻ المسْكراتِ والمُخدّراتِ لما لها من أثرٍ سيّءٍ على عقلِ الإنسان ؛ فالخمرُ سُمّيَتْ خمراً بسبب تخميرِها العقلَ ؛ أي ستره وتغطيته . يُقال : خمّرْ إناءَك ، إذا طُلب منك أن تُغطّيه[2] .

مـــن أجـــل ذا حرّمها المولى ﷻ في قوله: ﴿ يا أيُّها الّذينَ آمنُوا إنّما الْخمْرُ والْميْسرُ والْأنْصَـــابُ والْأزْلامُ رجْسٌ منْ عملِ الشّيْطانِ فاجْتنبُوهُ لعلّكُمْ تُفْلحُونَ * إنّما يُريدُ الشّيْطانُ أنْ يُوقِـــعَ بيْنَكُمُ الْعداوةَ والْبغْضاءَ في الْخمْرِ والْميْسرِ ويَصُدّكُمْ عنْ ذكْرِ اللّهِ وعَنِ الصّلاةِ فهلْ

---

[1] ابن تيمية ، النبوات ، ١٤٠٥هـــ ، ص ٩٣ .

[2] الرازي ، ١٩٧٣م ، ص ١٨٩ .

أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة : ٩٠-٩١] . فالخمر في حال سترها للعقل تجعل متعاطيها أشبه بالسـفيه الـذي لا يُحسن التصرُّف ، أو المجنون الذي لا يشعر بما يرتكب من جرائم تخلّ بالدين والشرف .

وأشـدّ من الخمر في الفتك بالعقل : المخدِّراتُ ، التي تُزيل العقل ، وتُفسد القلب ، وتجعلُ متعاطيها يعيش في غيبوبةٍ دائمةٍ ، هارباً من واقعه .

من أجل ذا حرَّمها الإسلامُ -كما حرَّم الخمر-، لجامع السُكْرِ في الاثنين ؛ فرسولنا ﷺ "نَهـى عن كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ"(١) ، وأخبر أنَّ "ما أَسْكَرَ كثيرُهُ ، فقليلُهُ حرامٌ"(٢) ، وأنَّ "كل مسكرٍ خمرٌ ، وكلّ خمرٍ حرامٌ"(٣) .

وقد قاس ابنُ تيمية (ت ٧٢٨هـ) حكمَ قليلِ "الحشيش" على قليل "المسكر" ، بجامع مُخامـرة كـلٍّ منهما للعقل ، فقال : "وأمَّا قليلُ الحشيشة المسكرةِ، فحرامٌ عند جماهير العلماء، كسائر القليل من المسكرات"(٤).

والمخـدِّراتُ كلُّهـا مُسـكرةٌ ، والوعيد المترتِّب على تعاطي الخمرِ ، هو الوعيد المترتِّب على تعاطي أنواع المخدِّراتِ المختلفة ؛ بجامع اشتراك الكُلِّ في إزالةِ العقلِ ، ولعمومِ نهيه ﷺ عن كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ .

فكلُّ ما جاء في وعيد شارب الخمر ، يأتي في مستعمل شيء من هذه المذكورات؛ "لاشـتراكهما فـي إزالة العقلِ المقصود للشارعِ بقاؤه ؛ لأنَّه الآلةُ للفهمِ عن الله تعالى،

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأشربة ، باب في النهي عن المسكر . وأحمد في المسند ٢٧٣/٤ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأشربة ، باب في النهي عن المسكر . وسنن ابن ماجه ، كتاب الأشربة ، باب ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ . وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ، مرجع سابق ، ٧٠٢/٢ ، ح ٣١٢٨ ، وصحيح سنن ابن ماجه ، ١٤٠٨هـ ، ٢٤٥/٢ ، ح ٣٣٩٣ .

(٣) **صحيح البخاري** ، **كتاب المغازي** ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن . وكتاب الأدب ، **باب ما لا يستحيا من الحقّ** ، وكتاب الأحكام ، باب أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موضع . **وصحيح مسلم** ، **كتاب الأشربة** ، باب بيان أنّ كل مسكر خمر .

(٤) **ابن تيمية** ، **مجموع الفتاوى** ، مصدر سابق ، ٢٥٤/٣٤ .

وعن رسوله ﷺ، والمتميّز به الإنسانُ عن الحيوان، والوسيلةُ إلى إيثار الكمالات عن النقائص . فكان في تعاطي ما يُزيله وعيد الخمر"[١] .

ولا ريب أنّ النهي عن هذه الأشياء المضرّة بالعقل ، من أقوى الأدلّة على عناية الإسلام به ، ومحافظته عليه .

وعلينا أن لا ننسى أنّ العقل واحدٌ من الضروريّات الخمس التي عني الإسلام -كسائر الشرائع- بحفظها .

فالشريعة الإسلاميّة تدور أحكامها حول حماية خمسة أمور ، هي أمّهات لكلّ الأحكام الفرعيّة ، ويُسمّونها الضروريّات الخمس ، وهي : حفظ الدين ، حفظ النّفس ، حفظ العقل ، حفظ العرض ، حفظ المال .

وتتجلّى حماية الإسلام للعقل في[٢] :

١- تربيته على حُسْن المعرفة، والمنطق العلميّ ، والفكر الاستدلاليّ ، والمنهج التجريبيّ .

٢- النهي عن كلّ ما يضرّ به ، أو يُعطّل وظيفته ؛ كالنهي عن المسكرات والمفترات -كما مرّ- .

٣- الأمر بتغذيته بالعلوم النافعة ، واستعماله في الخير .

٤- النهي عن الاعتداء عليه بأيّ نوعٍ من أنواع الاعتداء ؛ كالضرب ونحوه .

ولقد جعل الإسلامُ الديةَ كاملةً في حقّ مَنْ ضَرَبَ آخر ، فأذهب عقلَه .

يقول عبد الله[٣] بن الإمام أحمد بن حنبل -رحمهما الله- : "سمعتُ أبي يقول : في العقلِ ديةٌ ؛ يعني إذا ضُرِبَ ، فذَهَبَ عَقْلُهُ"[٤] . وهذا لا خلاف فيه بين علما

---

(١) الهيتمي ، (د . ت) ، ٢١٢/١ .

(٢) النحلاوي ، ١٣٩٩هـ ، ص ٦٧ .

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن محمّد بن حنبل ، أبو عبدالرحمن الشيباني . إمام ، حافظ ، ناقدٌ ، محدّث بغداد . مات سنة تسعين ومائتين ، عن سبع وسبعين سنة . (الخطيب البغدادي مصدر سابق ، ٣٧٥/٩-٣٧٦ . والذهبي، السير، مصدر سابق ، ٥١٦/١٣-٥٢٦) .

(٤) الإمام أحمد ، المسائل برواية عبدالله ، ١٤٠٨هـ ، ص ٤١٧ .

المسلمين[1] ؛ لأنّ العقــل "أكبرُ المعاني قدْراً ، وأعظمُ الحواس نفعاً ؛ فإنّ به يتميّز من البهيمة ، ويَعْرِف به حقائق المعلومات ، ويهتدي إلى مصالحه ، ويتّقي ما يضرُّه ، ويدخل بــه في التكليف . وهو شرطٌ في ثبوت الولايات ، وصحّة التصرُّفات ، وأداء العبادات ، فكان بإيجاب الدية أحقّ من بقيّة الحواس"[2] .

وأيّ تكريم أعظم من هذا التكريم !! .

المسألة الثالثة : مجالات العقل ومداركه في الإسلام :

من ســمات التكريم التي حظيَ بها العقل في الإسلام ، تلك المجالات التي حُدّدت له ليخوض فــيها ، حتى لا يضلّ ، ولا يزيغ ، ولا يتخبّط في الظلمات إذا ما نأى عنها ، وخاض في غيرها .

والله ﷻ قــد "جَعَلَ للعقولِ في إدراكهــا حدًّا تنتهي إليه لا تتعــدّاهُ ، ولم يَجْعَلْ لها سبيلاً إلى الإدراك في كلّ مطلوبٍ"[3] .

وعقول البشر يعتريها ما يعتري البشر من ضعفٍ ، وعَجْزٍ ، ونقصٍ .

وهــي مــتفاوتة ، كما قال وَهبُ بنُ مُنَبِّه[4] (ت ١١٠هــ) : "كما تتفاضَلُ الشجرُ بالأثمار ، كذلك تتفاضلُ النّاس بالعقل"[5] .

ويشــهد لــتفاوتها : قوله ﷺ للنّساء : "ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازمِ من إحداكُنّ"[6] ؛ فقد دلّ بمنطوقه على النُّقصان ، وبمفهومه على الزيادة، وهو معنى التفاوت .

---

(١) نصّ على ذلك الإمام ابن قدامة المقدسي في كتابه "المغني" ، ١٤١٠هــ، ١٥١/١٢ .

(٢) ابن قدامه ، المغني ، مصدر سابق ، ١٥٢/١٢ .

(٣) الشاطبي ، ١٤٠٥هــ ، ٣١٨/٢ .

(٤) ابن كامل ، أبو عبدالله اليماني الصنعاني . تابعي ثقة . مات سنة عشر ومائة . (الذهبي ، السير ، مصدر سابق ، ٥٤٤/٤) .

(٥) ابن أبي الدنيا ، مصدر سابق ، ص ٤٩ .

(٦) صحيح البخاري ، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم . وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات . واللفظ للبخاريّ .

وكـذا الإجمـاع دلّ على التفاوت؛ فـكلّ النّاس يقولون: عقلُ فلانٍ قليلٌ، وعقل فـلانٍ أكـثرُ من عقل فلانٍ، وفلانٌ غيرُ عاقلٍ. قيل: هذا كلّه يُراد به أكثر استعمالاً وتدبُّراً وتفكُّراً من الآخر. قيل: فذلك التدبُّر والتفكُّر علامةٌ على كثرة العقل، ولو كان مثل الآخر، لما تفكّر أكثر، ولا تدبّر"(١).

وهذا التفاوتُ يتطرّق إلى معاني العقل كلّها، عدا المعنى الثاني؛ وهو العلوم التي تَـلزم الإنسـان العاقل؛ فتقع في نفسـه ابتداءً، ولا تنفكّ عن ذاته؛ "فإنّ من عرف أنّ الاثنيـن أكثرُ من الواحد، عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً.. إلخ"(٢).

وهذا كلُّه يتساوى فيه بنو البشر.

وتفـاوت العقـول يـدلّ على أنّ لكلّ واحدٍ منها حدّ وغاية -في إدراك الأشياء- ينتهي إليه، ولا يتعدّاه.

فالعقلُ لا يُدركُ كلَّ ما جاء به الرسول ﷺ، أو أخبر عنه؛ فمداركُهُ ليست شاملة.

مـن أجل ذا قال الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ): "ليس في السنّة قياسٌ، ولا يُضرب لها الأمثال، ولا تُدرك بالعقول"(٣).

وقـد عقّـب علـيه ابـن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بقوله: "هذا قوله، وقول سائر أئمة المسـلمين؛ فإنّهم متفقون على أنّ ما جاء به الرسول ﷺ لا تُدركه كلّ النّاس بعقولهم، ولـو أدركـوه بعقولهـم لاستغنوا عن الرسول"(٤)، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) الكلوذاني، ١٤٠٦هـ، ١/٥٥-٥٦.

(٢) الغزالي، مصدر سابق، ص ٦٦.

(٣) ابن أبي يعلى، (د. ت)، ١/٢٤١.

(٤) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، مصدر سابق، ٥/٢٩٧.

والعلوم من حيث إدراك العقل لها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم ضروريّ لا يُمكن التشكيك فيه ؛ كعلم الإنسان بوجوده ، وعلمه بأنّ الاثنين أكثر من الواحد ، وأنّ الضدَّين لا يجتمعان ، .."[1] .

وقسمٌ نظريّ يُمكن العلم به ، ويُمكن أن لا يُعلم به ؛ وهي النظريّات . وذلك الممكنات التي تُعلم بواسطة ، لا بأنفسها. إلاّ أن يُعْلم بها إخباراً"[2] .

وقسمٌ لا يعلمه البتة ، إلاّ أن يُعْلَم بهِ ، أو يُجْعل له طريقٌ إلى العلم به . وذلك كعلم المغيبات عنه ؛ كانت من قبيل ما يعتاد علم العبد به أولاً ؛ كعلمه بما تحت رجليه ، إلاّ أنّ مغيبه عنه تحت الأرض بمقدار شبرٍ ؛ وعلمه بالبلد القاصي عنه ، الذي لم يتقدّم لـه به عهد .فضلاً عن علمه بما في السموات، وما في البحار، وما في الجنّة والنّار على التفصيل . فَعِلْمُهُ بما لم يُجعَل له عليه دليلٌ غيرُ ممكن"[3] .

ويدخل في هذا القسم –الأخير- أغلبُ مسائل الاعتقاد ؛ فلا تُعْلَمُ إلا عن طريق الخبر ؛ إذ لا يُمكن للعقول أن تستقلّ بمعرفة هذه المسائل ، لولا مجيء الوحي بها ، وبأدلّتها العقليّة . وما على العقل إلا فهمُها وتدبّرها .

"وأيضاً فإنّ كثيراً من مسائل الاعتقاد –بعد معرفتها ، والعلم بها عند العقول- لا تُدرِكُ العقولُ حقيقَتَها وكيفيّاتِها"[4] .

ومن الأمثلة على ذلك :

١- الروح ، التي ليست من مدارك العقل ؛ لذلك لمّا سألت يهودُ رسولَ الله ﷺ عنها، لـم يُبيِّنْ لهم ماهيَّتها ، بل قال : هي من أمرِ ربِّي :

فقد أخرج الإمامان البخاريّ ومسلمٌ في صحيحيهما[5] أنَّ اليهودَ مرّوا برسول الله ﷺ ، وهـو متكئ على عَسِيبٍ ، فقال بعضهم لبعضٍ : سلُوه عن الروحِ ،

---

(١) الشاطبي ، مصدر سابق ، ٣١٨/٢ .
(٢) الشاطبي ، مصدر سابق ، ٣١٩/٢ .
(٣) الشاطبي ، مصدر سابق ، ٣١٨/٢-٣١٩ .
(٤) ابن حسن ، مرجع سابق ، ١٧٨/١ .
(٥) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب : "ويسألونك عن الروح" . وصحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب سؤال اليهودِ النبيَّ ﷺ عن الروح .

فسألوه . فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يردّ عليهم شيئاً، حتّى نزل عليه الوحي :

﴿ وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥].

فهذه الروح التي تُوجد فينا، والتي توصف بصفات متعدّدة ، منها : الوجود، والحياة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والصعود ، والنزول ، وغير ذلك . وهي مخلوقةٌ ، ومع ذلك فالعقول قاصرةٌ عن معرفة كيفيّتها ، وتحديدها ؛ لأنهم لم يُشاهدوا لها نظيراً ، كما قال ابن تيمية: "والنّاس لمّا لم يشهدوا لها نظيراً، عَسُرَ عليهم التعبير عن حقيقتها"[1] .

٢- أمّا عن صفات الله ﷻ ، فللعقلِ دورٌ في تفهُّمِ معانيها ؛ لأنّا "بعقولنا نَعْتَبِرُ الغائب بالشاهِدِ ، فتبقى في أذهاننا قضايا عامّة كليّة ، ثمّ إذا خوطِبْنا بوصف ما غاب عنّا ، لم نفهمْ ما قِيلَ لنا إلا بمعرفةِ المشهودِ لنا"[2] .

وأمّا حقيقةُ الصفاتِ وكيفيّاتُها : فلا يُدركها العقل ، مع أنّه لا يحيلها ؛ إذ كيف يُدركُ ما يفتقِرُ إلى تصوّرِه .

ونحن لا نعلم كيفيَّة صفات ربِّنا ﷻ ؛ "إذ العلمُ بكيفيَّة الصفة يستلزم العلم بكيفيَّة الموصوف ، وهو فرعٌ له ، وتابعٌ له . فكيف تُطالبني بالعلم بكيفيَّة سمعه، وبصره ، وتكليمه ، واستوائه ، وأنت لا تعلم كيفيَّة ذاته ! . وإذا كنتَ تُقرّ بأنّ له ذاتاً حقيقيَّة ثابتةً في نفس الأمر، مستوجبة لصفات الكمال، لايُماثلها شيء؛ فسمعه، وبصره ، وكلامه ، ونزوله ، واستواؤه ثابتٌ في نفس الأمر ، وهو متّصفٌ بصفات الكمال التي لا يُشابهه فيها سمعُ المخلوقين ، وبصرهم ، وكلامهم ، ونزولهم ، واستواؤهم"[3] .

---

(١) ابن تيمية ، تفسير سورة الإخلاص ، ١٤٠٨هـ ، ص ٢٠٢ .
(٢) ابن تيمية ، شرح حديث النزول ، ١٤١٤هـ ، ص ١٠٤ .
(٣) ابن تيمية ، الرسالة التدمريَّة ، ١٤٠٥هـ ، ص ٤٤-٤٥ .

لذلك لـمَّا جاء رجلٌ إلى الإمام مالك بن أنس ؓ ؛ إمام دار الهجرة ، فقال له : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥]، كيف استوى ؟ أطْرَقَ الإمام مالكٌ برأسه ، وعلَتْهُ الرُّحَضَاءُ[1] ، ثُـمَّ رَفَعَ رأسَهُ ، وقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كما وَصَفَ نفسَـه ، فـلا يُقالُ : كيفَ ، و"كيفَ" عنه مرفوعٌ ، وقال للسائل: أنت صاحبُ بدعةٍ ، وطلبَ من أصحابِهِ أن يُخرجوه من مجلسِهِ[2].

فسببُ إنكـار الإمـام مـالك –رحمه الله– على السائل ، كونه أراد أن يخوض بعقلـه، ما ليس في متناول عقله ؛ وهو إدراك كيفيَّة الصفة ؛ لأنَّ الربَّ ﷻ لا يُحيط به علماً أحدٌ من خَلْقِهِ .

٣- وكذلـك ما أخبر الله ﷻ عنه من أمور الآخرةِ ؛ كالجنَّة ونعيمها ، والنَّار وجحيمها ، وغـير ذلك من المغيَّبات ، ليست من مدارك العقل ، ولا في متناوله ، مع أنَّ العقل يُقرّ بها ، ولا يُحيلها .

ولـنأخذ على ذلك مثالاً بنعيم الجنَّة؛ فالله ﷻ أخبرنا عمَّا في الجنَّة من المخلوقات؛ مـن أصناف المطاعم ، والمشارب ، والمناكح ، والمساكن ؛ فأخبرنا أنَّ فيها لبناً ، وعسـلاً، وخَمْراً ، وماء ، ولحماً ، وفاكهة ، وحريراً ، وذهباً ، وفضَّة ، وحوراً ، وقصـوراً ، وقد قال ابن عبَّاس –رضي الله عنهما– : ليس في الدنيا شيءٌ مـمَّا في الجنَّة ، إلاَّ الأسماء[3]"[4] .

أمـا الكيفـيَّة ، فمختلفة ، ولا طاقة للعقل في إدراك كيفيَّة هذا النعيم المقيم ، الذي أعدَّه الله للمتَّقين ، مع أنَّ وجودَه لا يتعارض معه بحال .

---

(١) الرُّحَضاءُ : عرقٌ يغسل الجلدَ لكثرتِهِ . (الزبيديّ ، ١٣٠٦هـ ، ٣٢/٥) .

(٢) البيهقي، ١٤١٣هـ، ٣٠٤/٢-٣٠٥، ح٨٦٦. ووصف الإمام الذهبي في كتابه "العلوّ، ١٣٨٨ هـ، ص ١٠٣" هذا الإسناد بأنَّه صحيح ، وقال : "هذا ثابتٌ عن مالك" .

(٤) أثر ابن عباس أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، مصدر سابق ، ٢١٠/١ .

(٥) ابن تيمية ، الرسالة التدمريَّة ، مصدر سابق ، ص ٤٦ .

"ونحن إذا تدبّرنا عامّة ما جاء في أمر الدين ؛ من ذكر صفات الله ﷻ ، وما تُعُبِّدَ النّاس باعتقاده ، وكذلك ما ظهر بين المسلمين وتداولوه بينهم ، ونقلوه عن سلفهم، إلى أن أسندوه إلى رسول الله ﷺ ؛ من ذكر عذاب القبر ، وسؤال الملكين ، والحوض، والميزان، والصراط، وصفات الجنّة، وصفات النّار، وتخليد الفريقين فيهما - ، أمورٌ لا تُدركُ حقائقها بعقولنا ، وإنّما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها . فإذا سمعنا شيئاً من أمور الدين ، وعقلناه ، وفهمناه ، فلله الحمد في ذلك والشكر ، ومنه التوفيق ، وما لم يمكنّا إدراكه وفهمه ، ولم تبلغه عقولنا ، آمنّا به وصدّقنا .."(١) .

وهذا راجعٌ إلى أنّ نصوص الكتاب والسُّنَّة لا تتعارض مع العقل الصريح .

يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): "فيأخذ المسلمونَ جميعَ دينهم -من الاعتقادات والعبادات ، وغير ذلك- من كتاب الله ، وسنّةِ رسولِه ، وما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمتها. وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح؛ فإنّ ما خالف العقل الصريح فهو باطلٌ . وليس في الكتاب والسنّةِ والإجماع باطل . ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعضُ النّاس . أو يفهمون منها معنى باطلاً ، فالآفةُ منهم ، لا من الكتاب والسُّنّة"(٢) .

وإذا كان كذلك ، فإنّ العقلَ مُطالَبٌ **بالتسليم للنصّ الشرعيّ الصريح** ، ولو لم يفهمه ، أو يُدْرِكِ الحكمةَ التي فيه ؛ لأنّ الشارع نصَّ على كلّ ما يَعْصِمُ من المهالك نصّاً قاطعاً للعذر، فلا حجّة لأحدٍ بعد بيانه، كما ذكر ابن تيمية (ت ٧٢٨) مستدلاً على ذلك بآيات كثيرة ، منها(٣): قوله ﷻ :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التوبة : ١١٥] ، وقوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأَسْلاَمَ دِيناً ﴾[المائدة: ٣] وقول أبي ذر الغفاري ﵁ : "لقد تركنا رسول الله ﷺ ، وما يَتَقَلَّبُ في السماء طائرٌ ، إلا ذكرنا منه

---

(١) السيوطي ، ١٣٦٦هـ ، ص ١٨٢ .

(٢) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ٤٩٠/١١ .

(٣) ابن تيمية ، درء تعارض العقل والنقل ، مصدر سابق ، ٧٣/١-٧٤ .

علماً"(١) ، وقول سلمان الفارسيّ رضي الله عنه حين قيل له : قد علّمكم نبيُّكم كلَّ شيءٍ حتى الخراءة(٢) ؟ : "أجلْ ؛ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول ، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجيَ بأقلَ من ثلاثة أحجارٍ، أو أن نستنجي برجيعٍ أو بعظمٍ"(٣) .

فهل يُعقل أن يُعلِّمهم ﷺ هذه الأمور ، ويُهمل ما كان أعظم منها ؟!

والجواب لا . وفي هذا دليلٌ على أنَّه ﷺ ترك أمّته على مثل البيضاء ، فوجب الامتثال لأمره ، والانقياد لحكمه .

وعلينا أن لا ننسى أنّ أوّلَ ذنبٍ عُصيَ الله ﷻ به ، كان سببه عدم الامتثال لأمر الله ﷻ ؛ وذلك حين أمر الله ﷻ إبليسَ بالسُّجودِ لآدم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة : ٢٤، الإسراء : ٦١، الكهف : ٥٠ ، طه : ١١٦] ، لم يمتثل الأمر ؛ فكان أوّل مَنْ قاسَ(٤) ، إذ ركَنَ إلى عقله ، فلم يهده إلى السبب الذي لأجله يسجد الفاضل للمفضول –على حسب ظنّه– ، فعصى ، فعُوقب : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف : ١٢ ،، وأيضًا ص : ٧٦] .

وهذه أوّل شبهةٍ وَقَعَتْ في الخليقة؛ كما قال الشهرستاني(٥) (ت ٥٤٨هـ): "اعلم أنّ أوّل شبهةٍ وقعت في الخليقةِ : شبهةُ إبليسَ لعنه الله ، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النصّ، واختياره الهوى في معارضة الأمر ، واستكباره بالمادة التي خُلِقَ منها ؛ وهي النّارُ ، على مادة آدم عليه السلام ؛ وهي الطين"(٦) .

فما أخبرنا عنه الله ﷻ في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، آمنّا به وصدَّقْناهُ ، وما سَكتَ عنه من أمر الغيبِ –ويدخل في ذلك ذات الله ﷻ، وأسماؤه، وصفاتُه– ، لم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٢١٠ ، ح ٢١٤٢٩ ، مسند "أبي ذر الغفاري" .

(٢) أي : حتى آداب قضاء الحاجة ؛ كما هو واضحٌ من تفسير سلمان رضي الله عنه .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، باب الاستطابة .

(٤) ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، مصدر سابق ، ٦/٣٠٠ .

(٥) هو محمَّد بن عبد الكريم، أحد أئمة الأشعريَّة . له تصانيف ، منها : الملل والنحل ، ونهاية الإقدام . توفي سنة ٥٤٩هـ. (الذهبي، السير ، مصدر سابق ٢/٢٨٦-٢٨٨) .

(٦) الشهرستاني ، ١٩٧٧م ، ص ١٤ .

نشغل عقولنا في البحث عن كيفيّته ، أو تكلُّف ما لا يُقدرُ عليه ؛ لأنّ عقول البشر لا تستقلّ بمعرفة أصول الدين على سبيل التفصيل ، لعجزها وقصورها ، ولو كانت تستقلُّ بمعرفة ذلك ، لما أرسل الله الرُسل ، وأنزل الكتب .

يقول السفاريني[1] (ت ١١٨٨هـ) :"لو كانت العقولُ مستقلّةً بمعرفة الحقّ وأحكامه ، لكانت الحجّةُ قائمةً على النّاس قبل بعْث الرّسل ، وإنزال الكتب . واللازم باطل بالنصّ : ﴿ وما كنّا مُعذِّبين حتّى نبْعث رسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] ، فكذا الملزوم"[2] .

لكن ليس النفي على إطلاقه، بل نقولُ : لا تستقلُّ العقولُ على سبيلِ التفصيل. أمّا على سبيل الإجمالِ ؛ فإنَّ الله ﷻ فطرَ الخلقَ على ملّةِ التوحيد :

يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : ".. الله سبحانه فوق مخلوقاته، عالٍ عليها ؛ قد فطَرَ الله على ذلك العجائز ، والأعراب ، والصبيان في الكُتّاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى ... والرُسُل بُعِثُوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويلِ الفطرة وتغييرها"[3] .

والله ﷻ قد وَهَبَ عباده عقولاً يهتدون بها إلى الحقِّ . والوصول إلى الحقّ يُمكن من طريقين ؛ طريق الوحي ، وطريق التجربة التي تجمع بين الحسّ والعقل .

وقد أشار القرآن الكريم في غير ما آية إلى الطريقة الثانية ، ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف : ١٠٩] .

"فبالسير في الأرض تتكوّنُ الصور الحسيّة لآثار السابقين ؛ من خراب الديار، ودروس العمّار، بعد أن كانوا أكثر قوّةً وجمعاً . وهذا هو عطاءُ الحسّ ، ثمّ تأتي مهمّة

---

(١) هو محمَّد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبليّ . شيخٌ ، إمامٌ ، صاحب التآليف الكثيرة . ولد بقرية "سفارين" من قرى "نابلس" سنة ١١١٤هـ ، وتوفي سنة ١١٨٨هـ . (الزركلي ، مرجع سابق ، ٦/٢٤٠) .

(٢) السفاريني ، ١٤٠٥هـ ، ١/١٠٥ .

(٣) ابن تيمية ، الجواب الفاصل ، مجلة البحوث الإسلامية ، ع ٢٩ ، ص ٣٠٣-٣٠٥ .

العقل ، وذلك بالنظر في هذا العطاء الحسّي ؛ فيفحصه مرتبًا لـه ، ورابطا لأجزائه بعضها ببعض ؛ يقيس الغائب على الشاهد ، ويلحق الشيء بنظيره ، والفرع بأصله ، والملزوم بلازمه ، إلى غير ذلك من الأعمال العقليّة ، ثمّ يخرج بالنتيجة ؛ وهي صلاح الآخرة ، وتقديمها على الدار الفانية"[1] .

وهكذا تبدأ معطيات الحسّ تردُ على العقل عبر رسله -السمع ، والبصر ، وغيرهما- ، ويبدأ العقل بأداء دوره في التفكُّر فيها ، إلى أن ينتهي إلى نتيجة تهديه إلى الحق .

وبهذا يتضح أنّ الشريعة الإسلاميّة لم تُهمِل العقل ، ولم تلغ دوره ، ولم تأمرْ أتباعها بتعطيلِه وعدمِ تشغيلِه ، كما فعلت باقي الديانات المحرّفة ، التي كانت تأمرْ أتباعها بالتسليمِ الأعمى .

فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا الدين، وجَعَلَنا من أمَّة محمَّدٍ سيِّد الأنبياء والمرسلين .

وصلى الله على نبيِّنا محمَّدٍ ، وعلى آله وأصحابِه أجمعين .



(٢) ابن حسن ، مرجع سابق ، ١/١٦٥ .

فهرس المصادر والمراجع :

١- الآمدي ، علي بن أبي علي بن محمد ، (١٣٨٨هـ) ، الإحكام في أصول الأحكام، (د . ن) .

٢- الإمام أحمد ، أحمد بن محمد بن حنبل ، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م) ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بيروت : المكتب الإسلاميّ .

٣- الإمام أحمد ، أحمد بن محمد بن حنبل ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، مسائل الإمام أحمد ، رواية ابنه عبد الله ، بيروت : المكتب الإسلاميّ .

٤- الأصفهاني ، عبد الله بن محمد ، (١٤٠٨هـ) ، الذريعة ، القاهرة : مكتبة التوعية الإسلاميَّة .

٥- الألباني ، محمد ناصر الدين ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م) ، صحيح سنن الترمذي، الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٦- الألباني ، محمد ناصر الدين ، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، صحيح سنن أبي داود، الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٧- الألباني ، محمد ناصر الدين ، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، صحيح سنن ابن ماجه، الرياض : مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٨- امرؤ القيس ، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، ديوان امرئ القيس ، بيروت : دار الكتب العلميَّة .

٩- أنيس ، إبراهيم أنيس ، ورفاقه ، (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م) ، المعجم الوسيط ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

١٠- البخاري ، محمد بن إسماعيل ، (١٤٠٠هـ) ، الجامع الصحيح "صحيح البخاري"، القاهرة : المطبعة السلفيَّة .

١١- البغدادي ، الخطيب ، (د . ت) ، تاريخ بغداد، بيروت : دار الكتاب العربي .

١٢- البيهقي ، أحمد بن الحسين ، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م) ، كتاب الأسماء والصفات ، جدة : مكتبة السوادي .
١٣- الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة ، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) ، الجامع الصحيح، المعروف بـ "سنن الترمذي"، القاهرة : مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.
١٤- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، (١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م) ، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم.
١٥- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م) ، تفسير سورة الإخلاص، القاهرة: دار الريان للتراث .
١٦- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، (١٤١٠) ، الجواب الفاصل بتمييز الحقّ من الباطل، الرياض : ضمن مجلة البحوث الإسلاميَّة ، ع ٢٩ ، ص ٢٧٩-٣١٣ .
١٧- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، درء تعارض العقل والنقل ، الرياض : جامعة الإمام محمَّد بن سعود .
١٨- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م) ، الرسالة التدمرية ، الرياض : شركة العبيكان .
١٩- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م) ، شرح حديث النزول ، الرياض : دار العاصمة .
٢٠- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، (١٤٠٤هـ) ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، مكة المكرمة : مكتبة النهضة الحديثة .
٢١- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، النبوات، بيروت : دار الكتب العلمية .
٢٢- الجوهري، إسماعيل بن حمَّاد ، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، الصحاح ، (د . ن) .
٢٣- ابن حجر، أحمد بن علي، (١٤٠٦هـ)، تقريب التهذيب، حلب : دار الرشيد.

٢٤- الحربي ، إبراهيم بن إسحاق ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، غريب الحديث، جدة: دار المدني .
٢٥- ابن حسن ، عثمان بن علي ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) ، منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنّة والجماعة ، الرياض : مكتبة الرشد .
٢٦- ابن خلكان، أحمد بن محمد، (د . ت)، وفيات الأعيان، بيروت: مطبعة الغريب.
٢٧- أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م) ، سنن أبي داود ، بيروت : دار الكتب العلميَّة .
٢٨- ابن أبي الدنيا ، عبد الله بن محمد بن عبيد ، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) ، كتاب العقل وفضله ، الرياض : دار الراية .
٢٩- الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان ، (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م) ، سير أعلام النبلاء ، بيروت : مؤسسة الرسالة .
٣٠- الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان ، (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) ، العلوّ للعليّ الغفّار ، بيروت : دار الفكر .
٣١- الرازي ، محمد بن أبي بكر ، (١٩٧٣م) ، مختار الصحاح ، القاهرة : دار المعارف .
٣٢- الزبيدي ، محمد مرتضى ، (١٣٠٦هـ)، تاج العروس وجواهر القاموس، بيروت : مكتبة الحياة. مصور عن ط١ بمطبعة الخيرية الجمالية بالقاهرة .
٣٣- الزركلي ، خير الدين ، (١٩٨٤م) ، الأعلام ، بيروت : دار العلم للملايين .
٣٤- الزمخشري ، محمود بن عمر ، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م)، أساس البلاغة، بيروت : دار الفكر .
٣٥- السفاريني ، محمد بن أحمد ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، **لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريَّة ، الرياض : مكتبة أسامة .**

٣٦- السلمي ، أبو عبدالرحمن ، (١٣٨٠هـ) ، طبقات الصوفيَّة ، القاهرة : مطابع الشعب .

٣٧- السيوطي ، جلال الدين ، (١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م)، صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام، بيروت : دار الكتب العلميَّة .

٣٨- الشاطبي ، إبراهيم بن موسى ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) ، الاعتصام ، بيروت : دار المعرفة .

٣٩- الشهرستاني، محمد عبدالكريم، (١٩٧٧م)، الملل والنحل ، بيروت : دار الفكر .

٤٠- الشوكاني ، محمد بن علي ، (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م) ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، القاهرة : مكتبة ومطبعة البابي الحلبي .

٤١- الطبري ، محمد بن جرير ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م) ، جامع البيان في تأويل آي القرآن ، المسمَّى "تفسير الطبري" ، بيروت : دار الكتب العلميَّة .

٤٢- الطوفيّ ، سليمان بن عبد القوي ، (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م) ، شرح مختصر الروضة، الرياض: توزيع وزارة الشؤون الإسلاميَّة والأوقاف والدعوة والإرشاد .

٤٣- ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله ، (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م)، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، بيروت : دار الفكر .

٤٤- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م) ، العقد الفريد . بيروت : دار الكتب العلميَّة .

٤٥- ابن عقيل ، علي بن عقيل ، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) ، الواضح في أصول الفقه ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

٤٦- الغزالي ، محمد بن محمد ، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، شرف العقل وماهيته ، بيروت : دار الكتب العلميَّة .

٤٧- ابـن فـارس ، أحمـد بن فارس ، (١٣٩٠هـ)، اللفيف في معرفة كل معنى لطيف، القاهرة : مكتبة ومطبعة البابي الحلبي .

٤٨- ابـن فارس ، أحمد بن فارس ، (١٣٨٩هـ) ، معجم مقاييس اللغة ، القاهرة : مكتبة ومطبعة البابي الحلبي .

٤٩- الفيروزآبادي ، محمـد بـن يعقوب ، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، بيروت : المكتبة العلميَّة .

٥٠- الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م)، القاموس المحيط ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

٥١- ابـن قدامـة المقدسي ، عبد الله بن أحمد ، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م) ، روضة الناظر وجـنّة المـناظر، مع شرحها نزهة الخاطر العاطر، الرياض : مكتبة المعارف.

٥٢- ابـن قدامـة المقدسـي ، عبـد الله بـن أحمـد ، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) ، المـغـنـي، القاهرة : دار هجر.

٥٣- الكلوذانـي ، محفوظ بن أحمد ، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م) ، التمهيد في أصـول الفقـه ، مكة المكرمة : جامعة أم القرى "مركز البحث العلمي" .

٥٤- المـاوردي ، علـي بن محمد بن حبيب ، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) ، أدب الدنيا والدين ، مكة المكرمة : دار الباز للنشر والتوزيع .

٥٥- المحاسبي ، الحارث بن أسد ، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)، شرف العقل وماهيته ، بيروت : دار الكتب العلميَّة .

٥٦- **مسلم بـن الحجـاج النيسابوري ، (١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م) ، صحيح مسلم ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .**

٥٧- **الـنابغة الذبياني ، زياد بن معاوية ، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م) ، ديوان النابغـة، بيروت : دار الكتب العلميَّة .**

٥٨- النحلاوي ، عبد الرحمن ، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع ، دمشق : دار الفكر .
٥٩- الهيتمي ، ابن حجر ، (د . ت) ، الزواجر عن اقتراف الكبائر ، القاهرة : مكتبة ومطبعة البابي الحلبي .
٦٠- ابن أبي يعلى الحنبلي ، (د . ت) ، طبقات الحنابلة ، بيروت : دار المعرفة .